دور الدعوة إلي الله تعالي في الإدخار وزيادة دخل الفرد والجماعة المسلمة

اسم الباحث

الأستاذ الدكتور: فهد عامر العجمي

الأستاذ المشارك بكلية التربية الأساسية

بالهيئة العامة للتعليم التطبيقي والتدريب بدولة الكويت

٢٠١٨

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وإمام المرسلين، سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

الإسلام دين شامل تناولت تعاليمه جميع أمور الدنيا التي نعيشها، فهو دين ودولة، خلق وقوة، سياسة وحكم، مادة وثروة، كما أنه دين دعوة وجهاد، وهو الدين الصحيح الذي ارتضاه الله تعالى لعباده، ولذلك جاء متكاملاً شاملاً لكل مناحي الحياة، صغيرة كانت أم كبيرة، فلم يترك شيئاً للصدفة أو للمزاح والهوى البشري.. حتى في الأمور التي لم يرد فيها نص تشريعي وتركها للاجتهاد الإنساني – وهي الأمور الخاصة بشئون الحياة – فقد وضع لها الضوابط والمعايير التي تضبط سلوك الإنسان عند التعامل معها.

لقد ارتضى الله تعالى لخلقه سننًا حياتية تعينهم وتساعدهم على الحياة، وتحقيق الغاية من الخلق وهي عبادة الله تعالى، وتعمير الأرض... ومن أهم هذه السنن هي سنة الزواج لتكوين الأسر التي تعتبر اللبنات الأولى لتكوين المجتمعات والأمم... وبذلك يستمر بقاء النوع الإنساني إلى ما شاء الله تعالى أن تبقى الحياة الدنيا وحتى قيام الساعة.

ولكي تعيش كل أسرة في حال من الاستقرار الاجتماعي والنفسي، وضع الله لنا ضوابط وأسساً لهذه الحياة نستطيع من خلالها تدبير شئون حياتنا ومواجهة كل ما يستجد أو يحدث من أحداث متباينة ومختلفة... مفرحة كانت أو محزنة.

وتحتاج الأسرة في ممارسة حياتها إلى نظام اقتصادي ومالي يمكنها من خلاله تلبية رغبات أفرادها، واحتياجاتهم الآنية والمستقبلية، خصوصاً في حال الأزمات أيًّا كان نوعها، وهذا الأمر يتطلب منها أن تتجه بجدية إلى نظام «الادخار»، ظاهرة قديمة قدم إدراك الإنسان، وهي تعني الاحتفاظ بالشيء في وقت الرخاء لوقت الشدة، وقد ضرب الله لنا مثلاً في كيفية تنظيم موارد البلاد والاستعانة بالرخاء على الشدة على لسان نبيه يوسف عليه السلام، قال تعالى: {قال تزرعون سبع سنين دأبًا فما حصدتم فذروه في سنبله إلا قليلاً مما تأكلون}[1] ، وهي من الفضائل والسلوكيات الحميدة التي يعلمنا إياها ديننا الحنيف، وها هي مجتمعاتنا الإسلامية اليوم بأمس الحاجة إلى تفعيل وتوظيف وتطبيق هذه الفضيلة على أرض الواقع لأن كثيراً من المسلمين اليوم بأمس الحاجة إلى أقل القليل والسبب في ذلك هو ترك هذه الفضيلة وإهمالها، والنزوع نحو البذخ وعدم الحرص على توظيف أموالهم كادخارات في المصارف الإسلامية تعمل على سد حاجات المجتمعات الفقيرة على شكل مشاريع استثمارية، وقروض استهلاكية حسنة تسد حاجة المعوزين والفقراء.

لقد تعلمنا أن الإيمان بالقدر خيره وشره هو من أركان الإيمان، كما علمنا رسول الهدى عليه الصلاة والسلام أن نسأل الله تبارك وتعالى اللطف في القدر، والرضا بالقضاء بعد وقوعه، ومن مسلمات الرضا حسن التعامل مع متغيرات الحياة، والقيام بواجبات النفس والأسرة؛ بل والمجتمع والوطن، من أجل هذا وجب علينا أن نتعلم القيام بمسؤولياتنا الدينية فضلاً عن المادية حتى تستقيم حياتنا؛ كما أراد الله تعالى لها أن تكون.

---

(١) سورة يوسف، آية: ٤٧.

واستقامة الحياة تحتاج إلى تنظيمٍ لمواجهة تبعاتها، وما يستجد من أمور، ويكون التركيز في هذا الشأن على الجانب المادي وفق ضوابط الجانب التعبدي، ويتضمن التنظيم المادي جوانب كثيرة سنركز على أحدها، وهو «الادخار» لبيان ضوابطه ومميزاته وأركانه وأنواعه ومحاذيره، مع العروج على المثال الأعظم في الادخار وتنظيم وإدارة المال لمواجهة الشدائد كما ورد في سورة يوسف.

ويعتبر الادخار واحدًا من أهم وسائل تحسين المعيشة، وزيادة الثروة، وفيه محاكاة لفطرة الإنسان وحب المال ورغبته في الاحتفاظ به، ولكنها وسيلة مباحة منضبطة وفق ما أراد الله دون بخل أو تقتير،حيث يقول عز وجل-:

{والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا} [1].

وكذلك فإن الادخار فضيلة تساهم في بث الشعور بالمسؤولية والإحساس بالواجب لدى المدخر، وكذلك تنمي عنده الرغبة في المشاركة الاقتصادية، وتحبب إليه المساهمة في بناء اقتصاده الخاص واقتصاد بلاده، وتجعله يشعر بقيمة نفسه وبأهميته كشخص فاعل في المجتمع؛ لذا يجب الحرص على تنميتها لدى الأفراد، وتوفير السبل المناسبة لهم لممارستها كتوفير الأوعية الادخارية المناسبة لهم من قبل المصارف، إضافة إلى فتح النوافذ والفروع القريبة من مناطق سكناهم والوصول إليهم في مواقعهم، وتعتبر المدخرات من أهم سبل التنمية في الاقتصاديات المختلفة، وقد أدركت أهميتها الشعوب والأمم وطبقتها على أرضها، ونحن

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٧.

كمسلمين مأمورين بها فنحن أولى بتطبيق هذه الفضيلة من غيرنا؛ لأنها توجيه الشارع الحكيم الذي يعلم كل خير.

في أحسن القصص القرآني أروع المثل للادخار المنضبط

قال تعالى: «يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ(٤٩)»[1].

وقد جاء في كتب التفاسير لهذه الآيات أنَّ المطر والخصب سيأتي لمدةِ سبع سنوات متواليات، وأنَّ البقرَ هي السنين؛ وذلك لأنَّها تثير الأرضَ التي تستغلُّ فيها الزروع والثمرات، وهن السنبلات الخضر، ثُمَّ قام يوسف بتوجيههم إلى ما يفعلونه في تلك السنين، وذلك بادخار ما استغلوه في السنوات السبع في سنبله؛ ليكونَ أبقى له، وأبعد من إسراع الفساد إليه، إلاَّ القدر أو المقدار الذي يَحتاجونه للأكل؛ بحيث يكون قليلاً، ونَهاهم عن الإسراف؛ لكي يستفيدوا في السبع الشداد، وهن السبع المحل التي تعقب السنوات السبع المتواليات، وقد بشَّرهم يوسف بأنه سيأتي عام غيث بعد عام الجدب؛ حيث تغل البلاد ويعصر الناس الزيت وغيره، كما كانت عليه عادتهم في السابق، كما اعتُبرت من قِبَلِ بعضِ الكُتَّاب بأنها موازنة تخطيطية عامة؛ حيث قام يوسف – عليه السَّلام – بعملية الموازنة

(١) سورة يوسف، آية ٤٦-٤٧-٤٨.

بين إنتاج ادِّخار واستهلاك القمح في مصر،وفي الآيات المباركات نجد مشروعاً له ثلاث مراحل: -

المرحلة الأولى:

تستمر سبع سنوات حدد يوسف- عليه السلام- معالمها كالآتي:

١ - خطة الإنتاج: (تَزْرَعُون) (الزراعة)

٢ - مدة الإنتاج: (سَبْعَ سِنِينَ)

٣ - مستوى الإنتاج: (دَأَباً) عملا دائباً متواصلاً.

٤ - زيادة المدخرات: (فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ)

٥ - تقييد الاستهلاك: (إِلا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ).

المرحلة الثانية

تستمر سبع سنوات حدد أهم معالمها كآلاتي:

١ - تقييد وتنظيم الاستهلاك (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ)

٢ - الاستعداد لإعادة الاستثمار: (إِلا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ).. أي هذه هي البذور التي ينبغي أن تحافظوا.

المرحلة الثالثة:

(ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُون)، أي يبذرون ما احتفظوا به في سنبله من قبل سبع سنين، فإذا ما ارتفع النبات وغطى الأرض وزكا الثمر جمعوه وعصروا زيوتهم وفاكهتهم، ومن هذا

نستشف أن خطة يوسف عليه السلام كانت تستهدف المجتمع بأسره (تَزْرَعُون) وإرادته الحكيمة متوجهة لإيجاد صفات في ذلك المجتمع تمكن من تحقيق الهدف المرسوم واجتثاث أي عائق في سبيل التنمية [1].

(١) تفسير الطبري ج ١١-١٢ ص ٢٤٣-٢٤٦، تفسير القرطبي ج ٩ -١٠ ، ص ١٣٣-١٣٤، فتح القدير ج ٣ ص ٣٧-٤٠.

الفصل الأول

الادخار في الإسلام

الادخار أحد الأمور المهمة التي نبه إليها ديننا الحنيف في تنظيم الحياة الاقتصادية للأفراد والمجتمع بما فيه صلاحه وسعادته، فقد قال رسول الله: «رحم الله امرأ اكتسب طيبًا، وأنفق قصدًا، وقدم فضلا ليوم فقره وحاجته» (١).

والادخار هو الاحتفاظ بجزء من الكسب لوقت الحاجة إليه في المستقبل، ويقوم الادخار في الإسلام على ركنين أساسيين:

الأول: الكسب الطيب الحلال في ضوء قدرات الفرد وطاقاته،. قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا) (٢).

الثاني: الاقتصاد والتدبير في النفقات.

---

(١) أخرجه ابن النجار في تاريخه عن عائشة رضي الله عنها، كما في الجامع الصغير (٤٤٢٢)، ورمز له السيوطي بضعفه. وروي هذا الكلام عن الحسن البصري موقوفًا عليه، أخرجه ابن أبي شيبة (٣٦٨٥٠)، وأبو نعيم في الحلية (١٤٣/٢)، والطبري في تهذيب الآثار (١٢٨/١، برقم: ٢١٢، ٢١٣) من طرق صحيحة.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، برقم: (١٠١٥/٦٥).

ضوابط الادخار:

وضع الإسلام ضوابط للادخار، هي:

١ – ألا يؤدي الادخار إلى احتكار للسلعة، لا يغليها على الآخرين فيتضررون به.

٢ – ألا تكون السلعة من نوع يحتاج إليه الناس، فلا يجوز ادخارها في هذه الحال.

٣ – ألا يؤدي الادخار إلى ضعف اليقين من رزق غد، فهذا يضر بعقيدة المسلم، وقد جاء في الحديث (يابن آدم إنك إن تبذل الفضل خير لك، وإن تمسكه شر لك، ولا تلام على كفاف، وابدأ بمن تعول، واليد العليا خير من اليد السفلى) [١].

٤ – ألا يؤدي الحرص على الادخار إلى البخل والشح على من تجب عليه نفقتهم،

قال : (كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوته) [٢].

والجزء الفائض من الكسب بعد الإنفاق يكون المدخر أو المستثمر.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى، وأن اليد العليا هي المنفقة وأن السفلى هي الآخذة، برقم: (١٠٣٦/٩٧)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الزكاة، باب: فضل النفقة على العيال والمملوك، وإثم من ضيعهم أو حبس نفقتهم عنهم، برقم: (٩٩٦/٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

والادخار لوقت الحاجة أمر واجب؛ فهو أخذ بالأسباب؛ ولكنه لا يغني عن قدر الله.

وهو حق للأبناء على الآباء، قال: (إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس في أيديهم) (١).

والادخار على أنواع:

١ - اختياري: ويقوم به الأفراد برغبتهم الخاصة دون إجبار أو تدخل من أحد.

٢ - إجباري: وتقوم به الدولة بصورة جماعية عن طريق احتفاظ الحكومة بجزء من مرتبات وأجور الأفراد أثناء عملهم، ثم صرفها لهم عند الحاجة إليها، أو عند انتهائهم من العمل.

لماذا ندخر؟

هناك بعض العوامل التي تدفع الفرد أو الدولة للادخار، ومنها:

١- مستوى دخل الفرد: فكلما كان الدخل مرتفعًا زادت القدرة على الادخار أو العكس.

٢- مستوى الأسعار: حيث إن هناك علاقة عكسية بين الأسعار والادخار، فإذا زادت الأسعار قلَّ الادخار أو العكس.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: أن يترك ورثته أغنياء خير من أن يتكففوا الناس، برقم: (٢٧٤٢)، ومسلم، كتاب: الوصية، باب: الوصية بالثلث، برقم: (٥/١٦٢٨)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما.

٣ – العائد المتوقع والمكسب الذي ينتظره الفرد من الادخار: فكلما ارتفعت قيمته زاد إقبال الفرد على الادخار وهكذا.

٤ – الاحتياط لمواجهة الأزمات: كالفقر والمرض وغير ذلك.

٥ – الرغبة في تحسين مستوى المعيشة والاستمتاع بدخل أكبر في المستقبل.

٦ – الرغبة في توفير الإمكانات اللازمة لأداء بعض الأغراض: كشراء السلع المعمرة كالسيارة أو الثلاجة وغيرهما، والتي لا يستطيع دخل الفرد تحقيقها بصورته الجارية.

مميزات وفوائد الإدخار

مع تعدد العوامل التي تدفع الفرد والدولة إلى الادخار تأتي أهمية الادخار لتزيد من الاتجاه إليه والترغيب فيه، وتقوم أهمية الادخار على أنه:

١ – وسيلة لتحسين مستوى المعيشة وزيادة الثروات.

٢ – وسيلة لتمويل المشروعات الاستثمارية.

٣ – أنه يساعد في تنمية مستوى الدخل القومي للدولة.

ومع حثَّ الإسلام على الادخار وفق الضوابط التي ذكرت فقد نبه إلى ضرورة الوسطية والتوازن فقال تعالى: {ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسورًا}[1].

(١) سورة الإسراء، آية: ٢٩.

وقال- عز وجل-: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا} [1].

فإذا كان الإسلام قد شجع على الادخار وبين فضيلته فقد حذَّر من البخل والاكتناز لما فيهما من تعطيل المال وحبسه، وعدم أداء حقوق الله في هذا المال، قال تعالى: {والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون}[2].

ولمحاربة هذا الخطر شرع الإسلام الزكاة، وجعلها أحد أركان الإسلام، وكذلك فرض الإسلام على كل مسلم الإنفاق على من يعول، ودعا الإسلام المسلمين إلى تحقيق المصلحة العامة للمجتمع من المال والثروة عن طريق استثماره وتنميته، ومن وسائل الاستثمار المتاحة أمام المسلم:

١ - الاستثمار الفردي في مشروعات تجارية أو صناعية.

٢ - الاستثمار عن طريق المضاربة الإسلامية مع أطراف آخرين.

٣ - الاستثمار عن طريق المشاركات الإسلامية.

٤ - الاستثمار التعاوني الإسلامي.

شريطة أن يدور كل هذا في إطار الكسب الحلال والإنفاق الحلال والاستثمار الحلال.

---

(١) سورة الفرقان، آية: ٦٧.

(٢) سورة التوبة، آية: ٣٤-٣٥.

الادخار والاكتناز

ولفضيلة الادخار أصل واضح جلي في شريعتنا الغراء؛ حيث ورد عن نبينا الكريم قوله: بينما رجل يمشي بفلاة من الأرض سمع صوتًا في سحابة: اسق حديقة فلان. فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟

قال: فلان بالاسم الذي سمع في السحابة فقال له:

يا عبد الله، لم تسألني ما اسمي؟ قال: إني سمعت صوتًا في السحاب الذي هنا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان، لاسمك، فماذا تصنع؟ قال: أما إذا قلت هذا، فإني أطرح ما خرج منها، فأتصدق بثلثه، وآكل أنا وعيالي ثلثه، وأرد فيها ثلثه» [(١)].

وكذلك قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «رحم الله امرأ اكتسب طيبًا، وأنفق قصدًا، وقدم فضلًا ليوم فقره وحاجته» [(٢)].

وحينما استنصح عمر بن الخطاب رضي الله عنه رسول الله عليه السلام، فقال: يا رسول الله، إني أريد أن أتصدق بمالي بثمغ، قال عليه السلام: «احبس أصلها وسبل ثمرتها»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الزهد والرقائق، باب: الصدقة في المساكين، برقم: (٢٩٨٤/٤٥)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه بهذا اللفظ النسائي، كتاب: الأحباس، باب: حبس المشاع، برقم: (٣٦٠٥)، وهو في الصحيحين في البخاري، كتاب: الشروط، باب: الشروط في الوقف، برقم: (٢٧٣٧)، ومسلم، كتاب: الوصية، باب: الوقف، برقم: (١٦٣٢/١٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنه.

وهنا يجب على المرء أن يفرق بين فضيلة الادخار التي حبب إليها الإسلام ورغب بها وبين الاكتناز هذه الصفة المذمومة؛ حيث إن الادخار وسيلة من وسائل سد الحاجة للفرد والأسرة والمجتمع، وكذلك وسيلة لتوفير السيولة المطلوبة للمصارف إضافة إلى أنها احتياط نقدي لمواجهة الطوارئ المصرفية والأزمات المالية، بينما الاكتناز هو إخراج للنقود من دائرة الفعل الاقتصادي وحرمان المجتمع منها وتعطيلها على المساهمة في إنعاش وتحريك عجلة الاقتصاد، قال تعالى: «والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها في نار جهنم فتُكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون»(١).

وهذا الوعيد مرده إلى الاكتناز ناجم عن البخل وعن حرمان العباد المستحقين من الحقوق المفروضة على المال كالزكاة والصدقة وغيرها إضافة الى حرمان المصارف من السيولة اللازمة لمتابعة الأعمال وتقديم الخدمات الاستثمارية والاستهلاكية الضرورية لحياة المجتمع.

وتقع مسؤولية الاهتمام بموضوع الادخار على عاتق الأسرة والدولة معًا؛ حيث يفترض تعليم الأولاد منذ الصغر أهمية الادخار وقيمته من خلال توفير حصالة صغيرة للطفل يضع فيها ما يزيد عن حاجته من مصروفه الشخصي يستعملها عندما يحتاج اليها وفق حاجات ضرورية أو هامة تبينهًا له من الأسرة، ومن هذا المستوى نستطيع القياس حتى نصل إلى مستوى ميزانية وثروات الدولة والأمة بشكل عام.

(١) سورة التوبة، آية: ٣٤-٣٥.

ويعتبر الادخار واحدًا من أهم وسائل تحسين المعيشة وزيادة الثروة، وفيه محاكاة لفطرة الإنسان وحب المال ورغبته في الاحتفاظ به، ولكنها وسيلة مباحة منضبطة وفق ما أراد الله دون بخل أو تقتير؛ حيث يقول عز وجل-: {والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا} (١).

وكذلك فإن الادخار فضيلة تساهم في بث الشعور بالمسؤولية والإحساس بالواجب لدى المدخر، وكذلك تنمي عنده الرغبة في المشاركة الاقتصادية، وتحبب إليه المساهمة في بناء اقتصاده الخاص واقتصاد بلاده، وتجعله يشعر بقيمة نفسه وبأهميته كشخص فاعل في المجتمع؛ لذا يجب الحرص على تنميتها لدى الأفراد وتوفير السبل المناسبة لهم لممارستها كتوفير الأوعية الادخارية المناسبة لهم من قبل المصارف إضافة إلى فتح النوافذ والفروع القريبة من مناطق سكناهم والوصول إليهم في مواقعهم، وتعتبر المدخرات من أهم سبل التنمية في الاقتصاديات المختلفة، وقد أدركت أهميتها الشعوب والأمم وطبقتها على أرضها، ونحن كمسلمين مأمورين بها فنحن أولى بتطبيق هذه الفضيلة من غيرنا؛ لأنها توجيه الشارع الحكيم الذي يعلم كل خير سبيل التنمية(٢).

---

(١) سورة الفرقان: آية، ٦٧.

(٢) تفسير الطبري ج ١١-١٢ ص ٢٤٣-٢٤٦- تفسير القرطبي ج ٩ -١٠ – ص ١٣٣-١٣٤ فتح القدير ج ٣ ص ٣٧-٤٠.

الفصل الثاني

دور الدعوة إلى الله تعالى في التنمية

يترتب على إفراد الله ﷻ في حق تشريع الحلال والحرام، اعتبار المشروعية الإسلامية الأساس الضابط لممارسة النشاط الاقتصادي في كل مظاهره من إنتاج واستهلاك وتداول وتوزيع.

ويشكل هذا الجانب البعد الروحي في النظام الاقتصادي؛ إذ إن الأساس في السياسة الاقتصادية الإسلامية هو أن الله سبحانه وتعالى وخشيته وابتغاء مرضاته والتزام تعاليمه هي التي تصوغ التصرفات الاقتصادية بين الأفراد بعضهم بعضًا.

«ويترتب على ذلك وجود الطابع الإيماني والروحي في السياسة الاقتصادية الإسلامية، خاصة وأن الإسلام لا يعرف الفصل بين ما هو مادي وما هو روحي»[1].

وينعكس أثر التوجه الروحي بتوحيد الألوهية في المجالات الاقتصادية، بوجود مجموعة من التوجيهات التشريعية التي حددت معالم الحلال والحرام والمكروه والمستحب والمباح على نحو ما فصله علماء الفقه في موسوعاتهم.

ويمكن اختصار إيجاز أهم تلك الآثار التشريعية على النحو التالي:

١- أهم الآثار التشريعية لتوحيد الألوهية في مجال الموارد:

(١) الدكتور/ السيد عطية عبد الواحد - مبادئ الاقتصاد الإسلامي - دار النهضة العربية - الطبعة الأولى - ص٨٦.

* الحرص على استثمار الموارد تحت الظروف، حتى وإن قامت القيامة على أحدهم وهو يغرس فسيلة؛ حيث قال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ:«إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة؛ فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل» (١).

والفسيلة يقصد بها صغار النخل.

* استخدام الموارد في المجالات المناسبة للاستفادة منها، وعدم استخدامها في غير ما خلقت لنفعه؛ حيث جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بينما رجل راكب على بقرة التفتت إليه فقالت لم أخلق لهذا، خلقت للحراثة»(٢).

* عدم إهدار الموارد في المجالات غير المنتجة على سبيل اللهو والعبث، حتى وإن كان عصفورًا صغيرًا، فقد ثبت في الحديث: عن عمرو بن الشريد قال: سمعت الشريد يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من قتل عصفورًا عبثًا عج إلى الله عز وجل يوم القيامة منه، يقول: يا رب إن فلانًا قتلني عبثًا ولم يقتلني لمنفعة»(٣).

* التنبيه إلى أهمية الحرص على نظافة البيئة والمحافظة على نقاء الموارد، جاء في الحديث:

---

(١) حديث مرفوع متصل، رواه أحمد في كتاب باقي مسند المكثرين – باب المسند السابق.

(٢) رواه البخاري في كتاب المزارعة – باب استعمال البقرة للحراثة.

(٣) حديث مرفوع متصل، رواه أحمد في أول مسند الكوفيين – باب حديث الشريد بن سويد الثقفي .

«عن عبد الله بن مغفل قال: قال رسول الله ﷺ: لا يبولن أحدكم في مستحمه ثم يغتسل فيه، -قال أحمد- ثم يتوضأ فيه؛ فإن عامة الوسواس منه» (١).

* المحافظة على الموارد من إسراف استخدامها حتى وإن كان استخدامها في طاعة الله ﷻ، إذ جاء في الحديث الشريف:

«عن عبد الله بن عمرو، أن رسول الله ﷺ مر بسعد، وهو يتوضأ، فقال: «ما هذا السرف»، فقال: أفي الوضاء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار» (٢).

* توجيه استخدام الموارد إلى الإنتاج المشروع، وترك الإنتاج غير المشروع في مجالات الخمور والخنزير وغيرها.

٢- أهم الآثار التشريعية لتوحيد الألوهية في مجال العمل والإنتاج:

* إخلاص النية لله ﷻ في كل عمل وتصرف في الحياة بما في ذلك التصرفات الإنتاجية لقول الله ﷻ:

﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَّ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ اللهَّ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي ﴾(٣).

(١) مرفوع متصل، رواه أبو داود في كتاب الطهارة - باب البول في المستحم .

(٢) حديث مرفوع متصل رواه ابن ماجه في كتاب الطهارة - باب ما جاء في القصد في الوضوء، وكراهة التعري فيه .

(٣) الزمر، آية: ١١- ١٤.

*** أداء العمل الصالح المتقن المنضبط في الأداء، على نحو ما أمر الله ﷻ آل داود بقوله:** ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1].

والإتقان هنا يتمثل في إحكام إسقاط المسمار في الثقب على نحو دقيق بمقدار ما لا يسمح بخلخلته خلال الأداء.

هذا وقد وعد الله ﷻ المتقنين في أداء عملهم الصالح بقوله:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾[2].

*** مراقبة الله سبحانه وتعالى في الأداء الإنتاجي، لقوله جل شأنه:**

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [3].

وهذا التوجه من شأنه المحافظة على معايير إتقان العمل وانضباطه، نتيجة الحرص على مراقبة الله سبحانه وتعالى في السر والعلن، وليس لمجرد إرضاء رؤساء ونفاقهم، ثم بعدهم عن العمل الجاد من وراء ظهرهم.

---

(١) سبأ، آية: ١٠- ١١.

(٢) الكهف، آية:١٧- ١٨.

(٣) يونس، آية: ٦١.

* عدم الاغترار بربح ظاهر سريع في المدى القريب، على حساب خسارة اقتصادية أكبر في المدى البعيد، كما قد يقع مثلًا في ممارسة بعض مجالات السياحة على نحو غير مشروع.

ففي صدر الإسلام الأول واجه المسلمون ظرفًا سياحيًا غير مشروع متمثل في سياحة المشركين للمسجد الحرام، فجاء النهي الإلهي عن قبول سياحتهم حتى وإن بدا الأمر فيه تضيحة بمنافع مادية، ونبه الله ﷻ إلى أن أمر الرزق بمشيئته سبحانه وحده فقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

واختيار المجال الحلال من أبواب الرزق سيكون مناط حساب أمام الله ﷻ يوم القيامة، فقد جاء في الحديث الشريف، عن ابن مسعود ﷺ عن النبي ﷺ قال: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم» (٢).

٣- أهم الآثار التشريعية لتوحيد الألوهية في مجال الاستهلاك:

* الاستهلاك في حدود المشروعية الإسلامية فيما أحل الله ﷻ وحرم؛ إذ يقول:

(١) التوبة، آية: ٢٨.

(٢) حديث مرفوع متصل رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع - باب ما جاء في شأن الحساب والقصص.

﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾(١).

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال: «كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء ويتركون أشياء تقذرًا، فبعث الله نبيه، وأنزل كتابه، وأحل حلاله، وحرم حرامه، فما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عفو منه» (٢).

*** لا حق لبشر في حل أو تحريم بغير ما أمر الله سبحانه وتعالى به؛ حيث يقول:**

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾(٣).

وفي تفسيرها، قال ابن عباس ﷺ : «هم أهل الشرك كانوا يحلون من الحرث والأنعام ما شاءوا، ويحرمون ما شاءوا» (٤).

*** الحرص على أن يكون مصدر المال المستخدم في الاستهلاك حلالًا طيبًا، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «يا**

---

(١) الأنعام، آية: ١٤٥.

(٢) الإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي – الدر المنثور في التفسير المأثور– الجزء الرابع – دار الفكر– طبعة ٩٣ – صفحة ٣٧٢.

(٣) يونس، آية: ٥٩.

(٤) المرجع السابق، صفحة ٣٦٩.

أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال:{يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحًا إني بما تعملون عليم}، وقال: {يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم}، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب، يا رب؛ ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب لذلك»[1].

* الحرص على الاعتدال في الاستهلاك المشروع والبعد عن الإسراف والتبذير على نحو ما أمر الله ﷻ حيث قال: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}.[2]

* الأخذ بالزينة المشروعة بغير إسراف ولا كبر ولا مخيلة، فقال ﷻ: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[3].

* إباحة المحظورات في الأزمات الطارئة والكوارث على نحو ما يشبع الضرورات الأساسية للحياة، إعمالًا للقاعدة الشرعية «الضرورات تبيح المحظورات»، والتي استنبطها علماء الأصول من قول الله ﷻ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ إِنَّمَا حَرَّمَ

(١) رواه مسلم في قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها.
(٢) الأعراف، آية: ٣١.
(٣) الأعراف، آية: ٣٢.

عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(1).

وقوله سبحانه وتعالى: { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}(2).

{ما أهل لغير الله به}: ما ذكر عليه غير اسم الله – حين ذبحه، و إذا اضطر إلى الميتة.

(1)البقرة، آية:172- 173.

(2) النحل، آ ية: 115.

الفصل الثالث

الأسس الدعوية لوفرة الموارد الاقتصادية

يستند اليقين الإيماني بوفرة مصادر الموارد الاقتصادية إلى أصول عقدية كثيرة، منها ما يلي:

أولًا: نعم الله ﷻ فوق الحصر، والموارد الاقتصادية بعضًا من تلك النعم، وترتيبًا على ذلك فإن الوفرة قائمة فيها لا ريب.

وجاء التنبيه إلى عدم تناهي نعم الله سبحانه وتعالى، وبأن تلك النعم فوق الحصر في قوله جل شأنه: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ}(١).

{وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}(٢).

وقد جاء الربط بين النعم والموارد في قول الله سبحانه وتعالى: {وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ}(٣).

{أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ}(٤).

---

(١) إبراهيم، آية: ٣٤.

(٢) النحل، آية: ١٨.

(٣) النحل، آية: ٨١.

(٤) لقمان، آية: ٢٠.

ثانياً: أن الله ﷻ قدر أقوات الأرض في ضعف المدة التي خلق فيها الأرض، فقال سبحانه وتعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}(١).

ثالثاً: اليقين بأن الله هو الغني له ما في الكون بأثره، وعطاء الله واسع بقدر ما يتسع هذا الغنى الذي لا حصر له ولا عد ولا كم: {لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}(٢).

رابعاً: الله سبحانه وتعالى الخالص@، وقدرته على الخلق مطلقة، وخلق الله سبحانه جل شأنه موارد الأرزاق؛ حيث قال: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}(٣).

---

(١) فصلت، آية: ٩- ١١.

(٢) الحج، آية: ٦٤.

(٣) البقرة، آية: ٢٩.

الفصل الرابع

التوجهات الدعوية المؤثرة في زيادة الموارد الاقتصادية

إن هذه التوجهات والتصرفات الإيمانية المؤثرة في زيادة الموارد يؤمن بها المسلم ويقبلها منطقه الإيماني، أما غير المسلم فمن الطبيعي أن يجهلها، وإن عرفها سيتنكر لها، وبذلك يمكن القول بخصوصية تلك التصرفات، خاصة أن توحيد الله ﷻ والإيمان به هو مدخل القبول لكل عمل صالح، وإلا فلا وزن له.

وفيما يلي عرض تفصيلي للتوجهات والتصرفات الإيمانية المؤثرة في زيادة الموارد:

١- الأخذ بأسباب العمل الصالح:

العمل ومقوماته من الإتقان والانضباط في الأداء والحرص على بذل غاية الوسع في السعي على الرزق والأخذ بأسبابه، هي الأصل العام الذي يرتب الحصول على الرزق، وهي التي بالحرص عليها، وتنامي الجهد في سبيلها، تحقق زيادة وفضلًا في الدخل والرزق.

والمؤمن يأخذ بأسباب الرزق أدبًا مع ربه، دون ادعاء منه بأنه جهد أو علمه أو علاقاته وأسباب الشخصية هي وحدها المرتبة للرزق، فالمؤمن يأخذ بأسباب العمل والسعي، ثم يفوض إلى ربه الأمر فيما قدره من رزق.

وكم من رجال أعمال يقدمون أسبابًا محدودة في الوقت والجهد، ربما رسالة برقية أو وساطة هاتفية، ثم يحققون من وراء ذلك الخير الكثير،

وفي المقابل كم من كادحين طوال يومهم، يشقون فيه من صباحهم لمسائهم، ورزقهم مقدر بقدر معلوم لحكمة أرادها علام الغيوب.

فالأسباب هي أعذار العباد إلى الله ﷻ، والأرزاق هي فضله سبحانه وتعالى يهبه بقدر لمن يشاء.

٢- الإنفاق في سبيل الله ﷻ:

وعد سبحانه وتعالى من أنفق ابتغاء مرضاته، أن يخلق عليه في الدنيا ويرزقه في الآخرة حسن الثواب؛ حيث قال: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}(١).

{قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ}(٢).

ووعد سبحانه وتعالى بإكرام المنفقين في سبل الخير، فقال: {إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ}(٣).

٣- الإيمان:

وعد سبحانه وتعالى بمزيد من الرزق والبركة للمؤمنين؛ حيث قال: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}(٤).

---

(١) البقرة، آية: ٢٦١.

(٢) سبأ، آية: ٣٩.

(٣) الحديد، آية ١٨.

(٤) الأعراف، آية: ٩٦.

قال قتادة: لأعطتهم السماء بركتها والأرض نباتها [١].

وبثبات الإيمان تدون النعم؛ كما وعد الله سبحانه جل شأنه في كتابه الكريم بقوله: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ}[٢].

٤- الصلاح والتقوى:

وعد الله سبحانه جل شأنه لمن اتقى من عباده، برزق من حيث لا يحتسب، فقال: {.... وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}[٣].

وقد ثبت «عن أبي ذر، قال ك جعل رسول الله ﷺ يتلو على هذه الآية، ومن يتق الله يجعل له مخرجًا حتى فرغ من الآية، ثم قال: يا أبا ذر لو أن الناس كلهم أخذوا به لكفتهم قال: فجعل يتلو بها ويرددها على حتى نعست....» [٤].

ولقد من الله ﷻ على سيدنا يوسف عليه السلام بالملك من بعد ما كان من أمر خشيته لربه، ورجائه إليه أن يصرف عنه الفتن، وصبره على أذى

---

(١) الإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي – الدر المنثور في التفسير المأثور – الجزء الثالث – دار الفكر – طبعة ٩٣– صفحة ٥٠٥ .

(٢) الأنفال، آية: ٥٣.

(٣) الطلاق، آية: ٢–٣.

(٤) حديث مرفوع متصل رواه أحمد في مسنده – كتاب مسند الأنصار – باب حديث أبي ذر الغفاري.

أخوته والظالمين أودعوه السجن بغير ما سبب جناه... كل ذلك أعقبه الله له خيرًا في الدنيا بملك لا مزيد بعده لفضل، فقال الله ﷻ عن لسانه:

{قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}(١).

٥- الهجرة في سبيل الله ﷻ:

لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، هذا ما أوصى به النبي ﷺ وهذا التوجه لا يتنافى مع هجرة بعض المؤمنين أحيانًا فرارًا من الفتن، أو قد يخرجوهم أعداء الإسلام بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله؛ كما هو الحال المؤسف الآن إزاء بعض الأقليات الإسلامية في بعض الدور الأوروبية.

وقد بشر الله ﷻ بزيادة الرزق للمهاجرين فرارًا بدينهم، وفي سبيل نصرته، فقال: {وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}(٢).

وقال الله ﷻ: {وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}(٣).

---

(١) يوسف، آية: ٩٠.

(٢) النحل، آية: ٤١.

(٣) النساء، آية: ١٠٠.

عن قتادة قال في تفسير مراغمًا كثيرًا وسعة «متحولًا من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى» (١).

والهجرة في سبيل الله ﷻ، تتيح للمؤمن منافع اقتصادية عديدة من بينها:

١- حرص المهاجر على الأداء المخلص للعمل والأمانة في المعاملات بحيث تعكس نموًا ورخاء اقتصاديًا.

ومما يجدر الإشارة إليه، أن أغلب مسلمي العالم، دخلوا الإسلام تأثرًا بالقدوة الطيبة للتجار المسلمين الأوائل بعد ما عايشوا أمانتهم، وصدقتهم في معاملاتهم.

ولولا نية الجهاد في سبيل الله التي يستحضرها المهاجرون لذاب هؤلاء التجار في المجتمعات التي هاجروا إليها.. تأثرًا بتقاليدهم وتماشيًا مع عاداتهم، ولما أقاموا دعوة، ولا حققوا أثرًا.

٢- الربط بين منافع الوطن الأم، ومنافع المجتمع المهاجر إليه، وتحقيق منافع في التبادل السلعي بينهما، وكما جاء في الحديث الذي رواه سيدنا عمر بن الخطاب، عن رسول الله ﷺ «الجالب مرزوق والمحتكر ملعون» (٢).

(١) الدر المنثور – مرجع سابق – صفحة ٦٥٠ .

(٢) حديث مرفوع منقطع رواه ابن ماجه في سننه – كتاب التجارات – باب الحكرة والجلب .

٦- الاستغفار:

وعد من الله ﷻ لعباده بأن رزقهم سيصير إلى زيادة إن استغفروا الله ﷻ عن ذنوبهم أو تقصيرهم، فقال: {وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} [(١)].

ووعد الله ﷻ بزيادة الرزق بالاستغفار على لسان بعض من أنبيائه، فقال سيدنا نوح لقومه: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا}[(٢)].

وقال سيدنا هود لقومه:

{وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ}[(٣)].

وفي الحديث الشريف عن ابن عباس أنه حدثه قال: قال رسول الله ﷺ: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا ورزقه من حيث لا يحتسب» [(٤)].

---

(١) هود، آية: ٣.

(٢) نوح، آية :١٠- ١٢

(٣) هود، آية :٥٢- ٥٣.

(٤) حديث مرفوع متصل رواه أبو داود في سننه – كتاب الصلاة – باب الاستغفار.

وأخرج البيهقي في سننه عن الشعبي ﷺ قال: خرج عمر بن الخطاب ﷺ يستسقي فلم يزد على الاستغفار حتى يرجع.

والاستغفار يتيح فرصة لمراجعة النفس وأخطائها والكشف عنها ومحاولة تصحيحها؛ لأن المستغفر عادة يستحضر في نفسه الأعمال التي يرجو من الله غفرانه والعفو عنها.

والتصرفات الإنسانية لا تخلو من تصرفات اقتصادية مبادلة أو عطاء، والاستغفار يعمق الحرص على الامتثال لشرع الله في تلك التصرفات يومًا ينعكس إيجابيًا على تسامي النشاط الاقتصادي على نهج من قيم الفضيلة والصدق والشرف.

٧- شكر الله سبحانه جل شأنه:

الشكر يزيد من الرزق والنعم بأذن الله ﷻ، وقد وعد الله سبحانه وتعالى بذلك حين قال: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}(١).

وقد أمر الله ﷻ عباده بالحمد، ولقنهم إياه رحمة بعباده وإشفاقًا عليهم من عجزهم عن الوفاء بما يليق من الحمد لربهم.. فقال سبحانه وتعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(٢).

وجاء الأمر بالشكر والحمد في أكثر من نص قرآني مبارك؛ حيث قال الله ﷻ: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ}(٣).

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) الفاتحة: ٢.

(٣) البقرة: ١٥٢.

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ}(١).

{وَقُلِ الْحَمْدُ للهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (٢).

{هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}(٣).

{فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا}(٤).

والشكر والحمد من الأمور التي يحبها الله ﷻ؛ حيث ثبت في الحديث: عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليرضي عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها» (٥).

ويرتب الشكر والحمد ﷻ آثارًا اقتصادية إيجابية لعل أهمها ما يلي:

١- قيام الإنسان بواجب الحمد والشكر.. يجعله يتسامى بطموحه الاقتصادي، ويكون مهيئًا لمزيد من التنمية والاستثمار؛ لأنه لا يستكثر على الله ﷻ مزيد من فضله.

٢- قيام الإنسان بواجب الشكر يجعله محافظًا على الموارد والنعم من الإسراف والتبذير وسوء الاستخدام؛ لأن نسبة النعمة إلى الله بالشكر يجعل الإنسان على حذر من مخالفة أمر الله فيها.

---

(١) الحجر: ٩٨.
(٢) النمل: ٩٣.
(٣) غافر: ٦٥.
(٤) النصر: ٣.
(٥) صحيح مسلم - كتاب الذكر والدعاء - باب استحباب حمد الله تعالى بعد الأكل والشرب .

٣- في حالة التعرض لأي من الهزات الاقتصادية والتي قد تكون محنتها شديدة، لا يستولي اليأس على نفس المسلم، وإنما يثق في أن فضل الله ﷻ سيعوضه خيرًا، متفائلًا بأن استقبال قضاء الله بالرضاء، والحرص على شكره في كل حال، سيعود عليه بمزيد من الفضل.

٨- الاستقامة على شرع الله:

الاستقامة على شرع الله يفتح بركات من النعم بإذن الله ﷻ؛ حيث قال:

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ}(١).

{وَلَوْ أَنَّهُم أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ}(٢).

٩- جلب الأرزاق والتجارة من خلال التعارف والعلاقات الإنسانية: قال الله ﷻ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}(٣).

فالتعارف الإنساني والمنافع المتبادلة بين البشر، ضرورة اجتماعية، وقد أشار إليها الله ﷻ في كتابه الكريم، كي يتحقق من وراء ذلك النفع

(١) الأعراف: ٩٦.
(٢)المائدة: ٦٦.
(٣) الحجرات: ١٣.

المتبادل، والحرص على الحكمة والمعرفة والخبرة أيًا كان مصدرها طالما لا تشكل خطرًا على الدين أو تهديدًا للعقيدة، فقد جاء في الحديث:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللهﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها»(١).

وهي تشكل الآن ضرورة اقتصادية لا مفر منها في ظل التكتلات الدولية واتفاقيات التجارة والعالمية.

١٠- صلة الأرحام:

صلة الأرحام من الأمور التي جاء بها الأمر، والتأكيد في أكثر من نص قرآني مبارك، وقد جعل الله ﷻ قطع الأرحام من مظاهر الإفساد في الأرض، فقال جل وشأنه: {فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ}(٢).

وقد وعد النبي ﷺ بأثر صلة الأرحام في زيادة الرزق؛ حيث ثبت عن أنس بن مالك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه»(٣).

١١- متابعة الحج والعمرة:

المتابعة بين الحج والعمرة من الأمور التي وعد النبي صلى عليه وسلم من أداها بزيادة الفضل والرزق؛ حيث جاء: عن عاصم عن عبد الله

---

(١) حديث مرفوع متصل رواه ابن ماجه في سننه – كتاب الزهد – باب الحكمة .

(٢) محمد: ٢٢.

(٣) صحيح البخاري – كتاب البيوع – باب من أحب البسط في الرزق.

بن عامر، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «تابعوا بين الحج والعمرة؛ فإن متابعة ما بينهما تزيد في العمر والرزق وتنفيان الذنوب كما ينفي الكير خبث الحديد»(١).

١٢- التوكل:

الأمر بالتوكل على الله سبحانه وتعالى جاء في أكثر من آية من كتاب الله ﷻ من ذلك قوله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللهَّ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}(٢).

وألمح الرسول ﷺ إلى الرابطة بين التوكل وأثره في الرزق؛ حيث ثبت في الحديث: عن أبي تميم الجبشاني، قال: سمعت عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا» (٣).

(١) حديث مرفوع متصل رواه أحمد في مسنده – كتاب مسند العشرة المبشرين بالجنة – باب أول مسند عمر ابن الخطاب.

(٢) الطلاق:٢– ٣.

(٣) حديث مرفوع متصل رواه ابن ماجه في سننه – كتاب الزهد – باب التوكل واليقين.

التوكل والإيمان بالله:

إن عقيدة الإيمان بالله تتجلى في التوحيد، توحيد الله توحيدًا كاملًا في ذاته وصفاته وأفعاله، ويتجلى هذا في قوله تعالي: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ (١).

وإذا كان الباحث في علم التوحيد قد بذل جهدًا كبيرًا في إثبات أن لا إله إلا الله بأدلة متعددة من خلال العقل والنظر في الكون؛ فإن هذا الجهد كله ليس الهدف منه هو مجرد إثبات وجود الله تعالى ووحدانيته، بل يتخطى الأمر إلى تحقيق هذا الإثبات في نفس المسلم إثباتًا يخرجه عن مجرد الوقوف على المناحي الكلامية واللفظية؛ بل المقصد الأسمى هو تحقيق ذلك في قلب المؤمن ولا يكون إلا بالتوكل على الله.

ويشير الإمام الغزالي إلى ما نحن بصدده فيقول: «فاعلم أن التوكل من أبواب الإيمان، وجميع أبواب الإيمان لا تنتظم إلا بعلم وحال وعمل، والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة، وحال هو المراد باسم التوكل، (... وبيان العلم الذي هو الأصل... غالبًا عليه)[٢].

---

(١) سورة محمد: ١٩.

(٢) إحياء علوم الدين، جـ١٣، دار الشعب، ص٢٤٨٦.

مظاهر التوكل

الأمر الأول : الثقة بالله

إن الإنسان المؤمن بالله لا يقف إيمانه عند تحرير الأدلة العقلية والنقلية على وجوده تعالى فحسب، بل عماده ذلك كله: هو الثقة بالله سبحانه وتعالى التي هي أجلى مظاهر التوكل، ومعنى الثقة بالله تعالى ليس مجرد تعبير ظاهريٍّ لأداء المظاهر الإسلامية؛ بل يتعدى ذلك كله إلى سويداء قلب الإنسان؛ حيث يأمره بالثقة الكاملة في الله تعالى؛ لأنه مليك كل شيء وخالقه وأن نفس الإنسان المؤمن التي بين جنبيه تحت سلطان الله وقدرته، يفعل فيها كيف يشاء، وهذه الثقة الكاملة، تتمثل في التفويض من الله في كل ما يحيط بالإنسان والتسليم له تعالى تسليمًا مطلقًا.

فانظر إلى دقة ما أشار إليه صاحب مدارج السالكين بقوله:

«الثقة: سواد عين التوكل، ونقطة دائرة التفويض، سويداء قلب التسليم»

وصدر الباب بقوله تعالى لأم موسى: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(١).

فإن فعلها هذا هو عين ثقتها بالله تعالى، إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه، وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف.

(١) سورة القصص:٧.

ومراده أن «الثقة خلاصة التوكل ولبه، كما أن سواد العين: أشرف ما في العين».

وأشار بأن «نقطة دائرة التفويض، إلى أن مدار التوكل عليه، وهو في وسطه كحال النقطة من الدائرة؛ فإن النقطة هي المركز الذي عليه استدارة المحيط، ونسبة جهات المحيط إليه نسبة واحدة، وكل جزء من أجزاء المحيط مقابل لها، كذلك «الثقة» هي النقطة التي يدور عليها التفويض، وكذلك قوله: (سويداء قلب التسليم)؛ فإن القلب أشرف ما فيه سويداء، وهي المهجة التي تكون بها الحياة، وهي في وسطه، فلو كان «التفويض» قلبًا لكانت «الثقة» سويداؤه، ولو كان عينًا لكانت سوادها، ولو كان دائرة لكانت نقطتها[1].

ثم إن التسليم الذي يتضمنه الثقة يتمثل في ناحيتين:

الأولى: التسليم المطلق بما جاء به الشرع الحكيم، فقد أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾(٢).

الناحية الثانية، وهي المظهر الذي سنتكلم عنه، وهو التسليم بقضاء الله وقدره، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾(٣).

---

(١) مدارج السالكين، جـ٢ لابن القيم الجوزية، ص١٤٩.

(٢) سورة النساء:٣.

(٣) سورة الأعراف:١٨٨.

الرضا بالقضاء والقدر:

ومن مظاهر التوكل، في نفس المؤمن الرضا بقضاء الله وقدره؛ فإن المؤمن المتوكل الواثق من الله المفوض له الأمر، والمسلم لقضائه وقدره، لا يقف عند حد مجرد التسليم، بل يتخطاه إلى الرضا به، فهو يعيش في جوٍّ نفسيٍّ يملأه الثقة بالله والرضا بقضائه وقدره.

ويعني الرضا فيما يعني أن تكون النفس مطمئنة بما قضى الله فرحة مسرورة به على أي الأحوال كان قضاء الله وقدره، فلا يصيب النفس الغرور ولا القنوت ولا اليأس من رحمة الله، بل تكون النفس في هذه الأحوال كلها على وتيرة واحدة راضية مرضية بما قسم الله وقدر لها، وهذا المظهر التوكلي ليس من الأمر الهين بحيث نخط له بالقلم حدوده ورسومه، فيسلكه الإنسان بل الأمر في غاية الأهمية والعظمة بحيث يحتاج الأمر إلى قوة إرادة وقوة عزيمة، وممارسة تتلوها ممارسة حتى ينفعل بها الإنسان، ويصبح الرضا في كيان الإنسان ظاهرًا وباطنًا.

فالرضى بإلهيته يتضمن الرضى بمحبته وحده، وخوفه ورجائه، والإنابة إليه، والتبتل إليه، وانجذاب قوى الإرادة والحب كلها إليه، فعل الراضي بمحبوبه كل الرضى، وذلك يتضمن عبادته والإخلاص له.

والرضى بربوبيته: يتضمن الرضى بتدبيره لعبده، ويتضمن إفراده بالتوكل عليه، والاستعانة به والثقة به، والاعتماد عليه، وأن يكون راضيًا بكل ما يفعل به.

فالأول: يتضمن رضاه بما يأمره به، والثاني: يتضمن رضاه بما يقدر عليه، وأما الرضى بنبيه رسولًا، فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم

المطلق إليه، بحيث يكون أولى من نفسه، فلا يتلقى الهدى إلا من مواقع كلماته ولا يحاكم إلا إليه، ولا يحكم عليه غيره، ولا يرضى بحكم غيره ألبتة، لا في شيء من أسماء الرب وصفاته وأفعاله، ولا في شيء من أذواقه، حقائق الإيمان ومقاماته، ولا في شيء من أحكامٍ ظاهرة وباطنة، ولا يرضى في ذلك بحكم غيره، ولا يرضى إلا بحكمه[1].

الشكر على نعمة والصبر على بلائه:

إن من أجلى مظاهر التوكل على الله سبحانه وتعالى الشكر لله على نعمائه، والصبر على بلائه، وهما ثمرتان من ثمار النقد لله تعالى والتسليم له والرضا بقضائه وقدره.

فإن ما قضى الله به تعالى بالنسبة للإنسان يدور في أمرين النعم من الله تعالى، وبلائه واختيار منه.

فالشكر أثر من الناحية الإيجابية، والصبر أثر من الناحية السلبية فيكون الشكر والصبر يمثلان المظهر الإيجابي والسلبي للرضا.

وهما ثمرة من ثماره؛ بهما يتحقق التوكل على الله تعالى، حيث يدور حال المؤمن على هذين المدارين؛ كما يقول الرسول ﷺ: «عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا المؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له».

ومن هنا جدير بنا أن نتكلم عن الشكر والصبر كمظهر من مظاهر التوكل على الله سبحانه وتعالى؛ كما يقول الرسول ﷺ.

---

(١) مدارج السالكين، جـ٢، لابن القيم، ص١٧٩، ١٨٠.

والإيمان نصفه شكر، ونصفه صبر.

الشكر على نعم الله تعالى:

فلقد أمر الله سبحانه وتعالى به، ونهى عن ضده، وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه وأمره، ومن هنا فقد وعد أهله بأحسن جزائه، وجعله سببًا للمزيد من فضله.

والاهتمام بمنزلة الشكر، فقد جعل اسمًا من أسمائه، فإن سبحانه هو «الشكور».

وقد علق عبادته تعالى على شكر النعمة؛ فلا يكون الإنسان عابدًا إلا بشكر النعمة، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾(١).

ومن أجل ذلك مدح الله سبحانه وتعالى أفضل خلقه بصفة الشكر فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾(٢).

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ: «أنه قام حتى تورمت قدماه فقيل: تفعل هذا وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: أفلا أكون عبدًا شكورًا».

صلة الشكر بالتوكل:

إن من الأمور التي توضح مدى صلة الشكر بالتوكل وأنه من أجلى مظاهره، وما نلمسه في القواعد الخمس التي ذكرها ابن القيم في مدارجه

(١) سورة البقرة :١٧٢.

(٢) سورة النحل:١٢١.

حيث يقول: «إن الشكر مبني على خمس قواعد: خضوع الشاكر للمشكور وحبه له، واعترافه بنعمته، وثناؤه عليها، وأن لا يستعملها فيما يكره»[1].

وبالنظر في هذه القواعد الخمسة بتأمل، نرى أنها توضح لنا صلة الشكر بالتوكل؛ فإن المؤمن بالله تعالى الواثق به والمسلم له والراضي بقضائه وقدره، فهو ذلك خاضع لصاحب النعمة، ثم إن الخاضع عن رضى فهو محب لمخضوعه، والمحب الدائم الذكر لنعم محبوبه، مثني عليه دائمًا، ولا يتم هذا كله إلا بتصريف النعم فيما يرضى عنها المنعم، فمآل الأمر كله على الثقة بالله وما ترتب عليها.

كما نلحظ تلك الصلة عند أبي سعيد الخراز، حينما رتب الشكر على وجوه ثلاث، فيقول: «شكر القلب، شكر اللسان، شكر البدن».

فأما شكر القلب: (فهو أن تعلم أن النعم من الله وحده لا من غيره).

فأما شكر البدن (فلا تستعمل جارحة –أصحها الله تعالى وأحسن خلقها– في معصية، بل تطيع الله تعالى، بها)[2].

فانظر رعاك الله لهذه الوجوه الثلاثة؛ فهي في جملتها لا تخرج عن قواعد صاحب المدارج، فالوجه الأولى يبين أن المؤمن الواثق بالله لا يتجه إلا إلى الله معترفًا بأن النعم من عنده وحده، بينما الوجه الثاني يجعل هذا المؤمن يلهث بالشكر لله على نعمائه، والثناء عليه.

(١) مدارج السالكين، لابن القيم، جـ٢، ص٢٥٤.

(٢) النحل: ١٢٧، ١٢٨.

الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل

إن الله سبحانه وتعالى وضع النظام الشامل للكون ورتب الأسباب والمسببات، وأمرنا بالأخذ بها، والسير على هذه السنن الكونية في كل متطلبات شؤوننا آخذين بتلك الأسباب والمسببات كما أمرنا أيضًا بالتوكل والاعتماد عليه، ولا يمكن أن يأمرنا الله سبحانه وتعالى بأوامر متعارضة.

وفي هذا أيضًا نجد إجابة الرسول ﷺ للأعرابي الذي أراد أن يترك الناقة فقال له الرسول ﷺ: «اعقلها وتوكل».

أي عليه أن يأخذ الأسباب في عدم فرارها متوكلًا على الله، ولا عليه بعد ذلك، بل إن ذلك متروك لله سبحانه وتعالى، وإذا ما أردنا أن نستقصي الأدلة على الأخذ بالأسباب، فنجدها كثيرة ومتنوعة شاملة بالإنسان في جميع مناحيه، سواء في الرزق، أو التداوي علاجًا ووقاية، وسواء كانت في الأمور النفسية أو الجسدية، ويكفينا أن نلقي نماذج متعددة للدلالة على ذلك.

الأدلة على الأخذ بالأسباب:

١: في السعي على الرزق والعمل:

يقول سبحانه وتعالى: {هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥}(١).

فانظر كيف نرى أن الآية عقبت لإنالة الرزق على المشي والسعي في مناحي الحياة، وبأمر الله سبحانه وتعالى الناس ألا يتفرغوا للعبادة

(١) سورة الملك:١٥.

وينصرفوا للسعي على المعاش أو العكس، بأن يتفرغوا للسعي على المعاش ويتركوا العبادة، بل أمرهم بالعبادة والسعي على المعاش معًا.

وفي كل طاعة لله تعالى، فيقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٩﴾(١).

فهذا رسول الله ﷺ كان يتاجر ويمشي في الأسواق ويخسف نعله، ويبيع ويشتري ومن الدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط، وانضاف إليه الحال والمعرفة، وأن الصديق رضي الله عنه بالخلافة أصبح آخذ الأثواب تحت حضنه، والذراع بيده، ودخل السوق ينادي حتى كره المسلمون ذلك، وقالوا: كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة، فقال لا تشغلوني عن عيالي، فإني إن أضعتهم كنت لما سواهم أضيع، حتى فرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين، فلما رضوا بذلك رأى مساعدتهم، وتطبيب قلوبهم، واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى، ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق في مقام التوكل، فمن أولى بهذا المقام منه! فدل على أنه متوكلًا لا باعتبار ترك الكسب والسعي، بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته، والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب، وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكبار، وتفاخر، وادخار، ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره، فمن دخل السوق ودرهمه أحب إليه من درهم غيره فهو

(١) سورة الجمعة :٩.

حريص على الدنيا ومحب لها، ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا، نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد(١).

٢: **في التخطيط والجهاد**:

أوضح مثال على ذلك: رسول الله ﷺ في هجرته من مكة للمدينة ضرب لنا أروع المثل في الأخذ بالأسباب إلى أقصى ما يستطيع الإنسان متوكلًا على الله سبحانه وتعالى تاركًا النتيجة لله تعالى ولا يشغل الإنسان نفسه بها، واثقًا بالله راضيًا بقضائه، فإذا ما استنفد الإنسان طاقته لا يكلف الله أكثر من ذلك، فهو حسبه ويجعل له المخرج، وهو نعم الوكيل، وكما قلت الهجرة أوضح مثال؛ فحينما تآمر القوم على قتل رسول الله ﷺ، وجاء له الأمر بالهجرة، فقد أخذ له كل الأسباب، مثل: «الصحبة فقد اختار لها صديقه الصديق أبو بكر رضي الله عنه، وأنام مكانه علي بن أبي طالب تمويهًا، على الكفار والمشركين، ثم حدد ساعة السفر في وقت مناسب للخروج وتخفيًا، وهو في هذه اللحظة قدرته لا تتخطى إلا الخروج متوخيًا تلك اللحظة؛ لكن لا يملك إلقاء النعاس عليهم أو غشاوة عيونهم.

ومن هنا أخذ سببًا للاطمئنان على الخطر من تلك الثغرة، فأخذ بيديه ﷺ حفنة من التراث وأذراها في الرياح قائلًا:

«شاهت الوجوه» فكانت الاستجابة الإلهية (فأغشيناهم فهم لا يبصرون) كما أنه ﷺ اتفق مع الراعي لتسوية الأقدام كي لا يعرف الأعداء أقدامه ﷺ، وهم أهل الخبرة في ذلك، ثم استأجر الدليل الذي يذهب به عن طريق غير مألوف، إيغالا في الإيهام على الكفار، ثم أمَّن وصول الطعام

(١) إحياء علوم الدين، جـ١٣، ص٢٥.

إليه؛ حيث عهد بذلك إلى بنت الصديق أسماء التي شرفت بالتسمية المباركة ذات النطاقين، فكانت تصل إليهما بالطعام، وتذوده بالأخبار، وأوى إلى الغار مختفين فيه، هذا كله على قدر جهد الرسول ﷺ وبلوغ الغاية في الأخذ بالأسباب، ومع هذا كله كان الرسول ﷺ وصحبه في حيز الانكشاف لدى الكفار وفعلًا وصل العدو إليهم ولم يكن بينه وبينهم إلا قاب قوسين أو أدنى معبرًا عن تلك الحالة أبو بكر؛ حيث ظن أن أمرهم قد انكشف، فعبر عن تلك الحالة أبو بكر لرسول الله ﷺ (والله يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى قدميه لرآنا) هنا ينبه الرسول ﷺ بأننا قد بذلنا الغاية في الأخذ بالأسباب ونحن متوكلون على الله فيقول له: «ما بالك باثنين الله ثالثهما» والقرآن يقول في ذلك يحكي لنا مقالة الرسول ﷺ لأبي بكر {إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠}(١).

٣: في التداوي:

إن الإسلام أمرنا في الحياة التي نعيشها ونتعرض فيها لصنوف من الأمراض، فعلينا أن نتداوى، فقد قال رسول الله ﷺ: «لكل داء دواء فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله»(٢).

فهذا الحديث جاء في باب التداوي في صحيح مسلم ومعه مجموعة من الأحاديث النبوية الشريفة التي تضرب لنا النماذج المتعددة في كثير

(١) سورة التوبة: ٤٠.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، المجلد السابع (١٣- ١٤) دار الفكر ١٩٨١، ص١٩١ الجزء الرابع عشر.

من الأمور العلاجية التي أمر الله بها، ومارسها رسول الله ﷺ، وبنظرة متعمقة في هذا الحديث نجده يخبرنا الصادق المصدوق ﷺ بأنه ما من مرض أيًّا كان إلا وضع الله له العلاج، وقد أثبت ذلك التقدم العلمي الحديث، فقد رأينا وشاهدنا وسمعنا عن أمراض نطلق عليها الأمراض المستعصية والتي فقد الأمل، وإذا يفاجئونا بالبحث والسعي على أن لها علاجًا وشفيت وبرأت بسببه، فإذا كنا ما نزال نسمع عن أمراض نظن أنه لا علاج لها فما علينا إلا الأخذ بالأسباب بالسعي عن دوائها، فسنجده مصداقًا لحديث رسول الله ﷺ، وهذا مما يدل على جانب عظيم من الإعجاز التنبئي والحقائق الثابتة التي أخبرنا بها الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان صدر الحديث يحثنا على الأخذ بالتداوي سببًا للشفاء ؛ فإن نهاية الحديث تضع له شرط التوكل على الله؛ لأن الشفاء بعد الأخذ بالأسباب والاعتماد على الله سبحانه وتعالى هو من عند الله، فانظر إلى دقة التعبير (فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله)؛ فإن البرء والشفاء بإذن الله سبحانه وتعالى، ومن هنا، فيجب الأخذ بالأسباب تداويًا وعلاجًا أن يتوكل على الله واثقًا به مسلمًا له راضيًا بما قسم.

وهذا هو المعنى الحقيقي للتوكل، فلنتأمل صدر الحديث بالأخذ بالأسباب ولنتدبر نهايته بأن الأمر موكول إلى الله تعالى.

وإن كان من ضرب لمثالٍ على التداوي كما أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فإليك بعض الأحاديث التي جاءت في باب التداوي في صحيح مسلم:

«حدثنا عبد الرحمن بن سليمان، عن عاصم بن عمر بن قتادة، قال جاءنا جابر بن عبد الله في أهلنا ورجل يشتكي خرجًا أو جراحًا، فقال: ما

تشتكي؟ قال: خراج بي قد شق علي، فقال: يا غلام ائتني بحجام، فقال له ما تصنع بالحجام يا أبا عبد الله، قال أريد أن أعلق فيه محجمًا، قال: والله إن الذباب ليصيبني أو يصيبني الثوب فيؤذيني ويشق علي، فلما رأى تبرمه من ذلك، قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن كان في شيء من أدويتكم خير ففي شرطة محجم، أو شربة من عسل، أو لذعة بنار، قال رسول الله صلى اله عليه وسلم، وما أحب أن أكتوي، قال: فجاء بحجام فشرطه فذهب عنه ما يجد»[1].

وإذا كان في جانب التداوي علاجًا؛ فإن هناك من الأسباب التي أمرنا بها رسول الله ﷺ في جانب التداوي وقاية، فقد روي عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف حدث أن رسول الله ﷺ قال: «لا يورد ممرض على مصح»[2].

أي: لا يرد صاحب إبل مراض على صاحب إبل صحاح[3].

وهذا لا ينافي قول رسول الله ﷺ: «لا عدوى»، فقد قال العلماء رضي الله عنهم في الجمع بين الحديثين طرقًا متعددة، ومن أبرزها في موضوعنا هذا أن المقصود من النفي الوارد في هذا الحديث، هو الاعتقاد بأن العدوى مؤثرة بذاتها، مما يترتب على هذا الاعتقاد الإيهام بأن ذلك التأثير خارج عن قدرة الله ومراده، فجاء هذا الحديث لا لينفي العدوى ووقوعها بل المراد نفي تأثير العدوى بذاتها، بل المؤثر هو الله سبحانه وتعالى.

---

(١) في الصحيح جـ١٤، ص١٤٢.

(٢) صحيح مسلم، جـ١٤، ص٢١٥.

(٣) شرح النووي، ص٢١٧.

الفصل الخامس

المخالفات الدعوية المؤثرة في ندرة الموارد الاقتصادية

لو أعيد النظر في تقييم الشواهد التاريخية من زاوية العلاقة بين انهيارها وضياع القيم؛ لتبين على الفور أن هناك تلازمًا حتميًّا بين المخالفات الإيمانية والانهيار الحضاري.

وحين الحديث عن الحضارات السابقة مثل قوم نوح وعاد وقوم فرعون وغيرهم، أكد الله ﷻ إزاء كل منها الترابط الحتمي بين شيوع مظاهر الكفر والظلم والفساد.. ودمارها وانهيارها.

والكفر يعد المدخل الرئيسي لكل شر، فكما قيل ليس بعد الكفر ذنب؛ ولذا كان أول دعوة لكل نبي قبل أن ينهي عن فساد مجتمعه، دعوة الناس إلى توحيد الله ﷻ أولًا، لأنه إذا صح الاعتقاد الإيماني صدق الالتزام الأخلاقي، ولا وزن لخلق لا يقوم على عقيدة صحيحة؛ لأنه حينئذ سيكون خلقًا انتهازيًا مبني على النفاق من أجل مصلحة دنيوية فحسب.

وفيما يلي عرض للمخالفات الإيمانية المؤدية إلى الانهيار الحضاري وزوال الموارد الاقتصادية أو تحقق نقص فيها:

١- الكفر:

قال الله ﷻ: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ}(١).

(١) النحل: ١١٢.

وقال جل شأنه: {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى}(١).

وقال سبحانه وتعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ}(٢).

فأعرضوا: بطر القومُ أمرَ الله، وكفروا بنعمه.

العرم: مكان في اليمن.

وبعد أن كان شجر القوم من خير الشجر، صيره الله إلى شر الشجر عقوبة بأعمالهم(٣).

٢- المعصية:

حذر الله ﷻ من زوال نعمته عن العصاة، فقال: {أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا

---

(١) طه: ١٢٤.

(٢) سبأ: ١٥-١٧.

(٣) الإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي - الدر المنثور في التفسير المأثور - المجلد السادس - مطبعة دار الفكر - صفحة ٦٩٢.

وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} (١).

٣- الظلم:

توعد الله ﷻ بهلاك الظالمين، فقال: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ}(٢).

{وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ}(٣).

{وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا}(٤).

وأخرج البخاري عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله سبحانه وتعالى ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته (٥)**، ثم قرأ هذه الآية:** {وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ}(٦).

---

(١) الأنعام: ٦.

(٢) يونس: ١٣.

(٣) هود: ١٢.

(٤) الكهف: ٥٩.

(٥) صحيح البخاري – كتاب تفسير القرآن – باب قوله وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة.

(٦)الأنبياء: ١١.

قال جل شأنه: {فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ}(١).

عن قتادة قال:

خاوية على عروشها: خربة ليس فيها أحد.

بئر معطلة: عطلها أهلها وتركوها.

قصر مشيد: شيدوه وحصنوه فهلكوا وتركوه(٢).

٤- البخل عن أداء الصدقة:

توعد الله ﷻ بضيق الرزق لغير المتصدقين، فقال: {وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِي كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ}(٣).

٥- الكبر:

الكبرياء لله وحده سبحانه جل شأنه، هو المتكبر، وآيات القرآن الكريم تبين تلك الحقيقة العقدية الهامة، ثم تحذر من مظاهر الكبر المادية بالحركة أو الإيماءة أو حتى برفع الصوت.

---

(١) الحج: ٤٥.

(٢) الدر المنثور – مرجع سابق – صفحة ١٦١.

(٣)الفجر:١٦– ٢٥.

والكبر هو المعصية الأولى التي من أجلها طرد إبليس من الجنة.

وقد ضرب الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عدة أمثلة عن الكبر وأثره في زوال النعم، منها، الكبر نتيجة الاغترار بالمال، على نحو ما جاء في قصة صاحب الجنتين في قول الله ﷻ: { وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا}(١).

فكان عاقبته، ما جاء في قول الله ﷻ: {وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا}(٢).

وفي حديث رواه البيهقي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «ما أنعم الله على عبد نعمة في أهل أو مال أو ولد فيقول ما شاء الله لا قوة إلا بالله إلا دفع الله عنه كل آفة حتى تأتيه منيته «وقرأ» ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله».

وأخرج ابن مردويه عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ «من أنعم الله عليه نعمة فأراد بقاءها، فليكثر من لا حول ولا قوة إلا بالله»(٣) ثم قرأ رسول الله ﷺ: { وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ }.

(١) الكهف:٣٢- ٣٤.

(٢) الكهف:٤٢- ٤٣.

(٣) الدر المنثور – مرجع سابق – صفحة ٣٩٢ .

وذكر الله ﷻ ما كان من شأن قارون الذي اغتر بعلمه، ونسب النعمة إلى نفسه بدل من نسبتها إلى ربه، وجاء في ذلك قول الله ﷻ: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} (١).

فكان عاقبته زوال نعمة الله عليه، فقال سبحانه: {فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ} (٢).

فبغى عليهم: قال قتادة «فعلا عليهم» (٣).

{لا يحب الفرحين} قال مجاهد ﷺ: المرحين، الأشرين، البطرين، الذين لا يشكرون الله على ما أعطاهم» (٤).

٦- كفر النعمة:

قال الله ﷻ، محذرًا من زوال النعم حين يكفر بها: {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} (٥).

---

(١) القصص: ٧٦.

(٢) القصص: ٨١.

(٣) الدر المنثور – مرجع سابق – صفحة ٤٣٧.

(٤) المرجع السابق – صفحة ٤٣٧ وما بعدها.

(٥) النحل: ١١٢.

وقال سبحانه وتعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ}(١).

٧- الترف:

المترفون في القصص القرآني هم أسبق الناس إلى الكفر، ذلك لما جبلوا عليه من الرخاوة والرغبة في الحصول على متع الحياة دون ما نصب ولا تعب، ولو على حساب ظلم الآخرين، وسلب حقوقهم، ومن هنا كانت مقاومتهم لكل دعوة إصلاحية أتى بها الأنبياء والرسل، لأنها تشكل تهديدًا لمصالحهم المبنية على الفساد والاستغلال، وتقاوم فيهم شهوة الكبر التي يستعلون بها على المجتمع.

وقد صدق الله ﷻ وصفهم حين قال: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ}(٢).

{وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ}(٣).

ومن أمارات الانهيار الاجتماعي والاقتصادي، تفشي روح الترف في المجتمع، وتحول أولوياته الإنتاجية من توفية الضرورات الأساسية للحياة، إلى ترضية نزوات الاحتياجات الترفيهية.

---

(١) القصص: ٥٨.

(٢) سبأ: ٣٤.

(٣) الزخرف: ٢٣.

هذا فضلًا عن الأثر السلبي للترف في تسريب روح الرخاوة والدعة وعدم القدرة على مواجهة مكابدات الحياة، والخوار النفسي عند أول ابتلاء يقع به «فالمترف مترهل ضعيف الإرادة ناعم قليل الرجولة، لم يتعد الجهد فسقطت همته، وفترت أريحيته؛ والجهد في الجهاد يعطل عليه متاعه الشهواني الرخيص، ويحرمه لذاته الحيوانية فترة من الوقت، وهو لا يعرف قيمة في الحياة سوى هذه القيم الداعرة والشائنة.

ولا غرابة في هذا فالمترفون حريصون على حياتهم الرخوة الشاذة المريضة، حريصون على شهواتهم ولذائذهم، حريصون على أن تكون من حولهم حاشية وبطانة خاضعة لنفوذهم؛ فالمتاع المترف الطويل الموروث عن الآباء ينسي الذكر، ويؤدي إلى الضحالة»(١).

وبتفشي الترف وما يصاحبه من كبر واستعلاء، وتسلط أمثال هؤلاء على مقادير الأمم؛ فإن ذلك يكون إيذانا بنهاية محتومة من الهلاك المحقق الذي توعدهم الله ﷻ به حين قال: { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}(٢).

٨- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

جاء في الحديث الشريف عن حذيفة يقول: إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ فيصير منافقًا و إني لأسمعها من أحدكم في المقعد الواحد أربع مرات لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر

(١) الأستاذ/ سيد قطب – العدالة الاجتماعية في الإسلام – دار الشروق، القاهرة وبيروت – الطبعة الشرعية السابعة – مارس سنة ١٩٥٤ – ص ١٤٥-١٤٦ .
(٢) الإسراء: ١٦.

ولتحاضن على الخير أو ليسحتكم الله جميعًا بعذاب، أو ليؤمرن عليكم شراركم ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لكم[١].

وفي حديث آخر:

عن الحسن بن محمد قال حدثتني امرأة من الأنصار هي حية اليوم إن شئت أدخلتك عليها، قلت لا حدثني، قالت: دخلت على أم سلمة، فدخل عليها رسول الله ﷺ كأنه غضبان فاستترت منه بكم درعي، فتكلم بكلام لم أفهمه، فقلت يا أم المؤمنين كأني رأيت رسول الله ﷺ دخل وهو غضبان؟ فقالت: نعم، أو ما سمعت ما قال؟ قلت: وما قال؟ قالت: قال: «إن الشر إذا فشا في الأرض فلم يتناه عنه أرسل الله ﷻ بأسه على أهل الأرض»، قالت: قلت يا رسول الله! وفيهم الصالحون؟ قالت: قال: «نعم وفيهم الصالحون يصيبهم ما أصاب الناس ثم يقبضهم الله ﷻ إلى مغفرته ورضوانه أو إلى رضوانه ومغفرته»[٢].

٩- شيوع الفاحشة والغش والفساد العام:

الفاحشة وشيوعها كانت إيذانًا بهلاك قوم لوط، و الغش في الكيل والميزان كان إيذانًا بهلاك قوم مدين، وكذلك الشأن في أقوام عاد وفرعون وثمود كان لكل منهم وجه إفساد في الأرض، فأهلكهم الله ﷻ جميعًا بذنوبهم.

---

(١) حديث مرفوع متصل رواه أحمد في مسنده – كتاب باقي مسند الأنصار – باب حديث حذيفة بن اليمان.

(٢) حديث مرفوع متصل رواه أحمد في مسنده – كتاب من مسند القبائل – باب حديث امرأة من الأنصار.

وفي الحديث عن عبد الله بن عباس أنه قال: ما ظهر الغلول في قوم قط إلا ألقى في قلوبهم الرعب، ولا فشا الزنا في قوم قط إلا كثر فيهم الموت، ولا نقص قوم المكيال والميزان إلا قطع عنهم الرزق، ولا حكم قوم بغير الحق إلا فشا فيهم الدم، ولا ختر قوم بالعهد إلا سلط الله عليهم العدو(١).

١٠- ترك الجهاد:

قال الله ﷻ محذرًا من الركون إلى دعة الكسل وترك الجهاد في سبيل الله، بقوله: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}(٢).

وفي شأن معاتبة المتخاذلين عن نصرة دينه، وتوعد إياهم بزوال نعمة الله عنهم، قال ﷻ: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}(٣).

---

(١) حديث موقوف منقطع – رواه مالك في الموطأ – كتاب الجهاد – باب ما جاء في الغلول.

(٢) التوبة: ٢٤.

(٣) التوبة: ٣٩.

وفي حديث عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول :«إذا ما تبايعتم بالعينة وأخذتم أذناب البقر ورضيتم بالزرع وتركتم الجهاد سلط الله عليكم ذلًا لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم»[1].

(١) حديث مرفوع متصل رواه أبو داود في سننه – كتاب البيوع – باب في النهي عن العينة.

الخاتمة

حسبي فيما كتبت وسطرت في بحثي هذا ، ولا أدعي لبحثي أن له السبق ، فقد ألفت كتب وأبحاث كثيرة في هذا الميدان ، غير أني أحببت أن أدلوَ بدلوي على قدر جهدي الضعيف ، إذ إنه كما يقولون ما ترك الأولون للآخرين شيئًا، وها إذ أقدم بحثي هذا أرجو من الله أن يكون لبنة في ميدان العقيدة الإسلامية عسى الله أن ينفعنا بما كتبنا ، وأن يجعل صرح العقيدة الإسلامية شامخاً فلا تنال منه العوادي والأحداث.

فإن أصبت فهذا مقصدي، وإن كانت الأخرى فإني سوف أتدارك ذلك إن شاء الله تعالى، والحمد لله أولاً وآخراً، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين .

مراجع البحث

أولا: القرآن الكريم.

ثانيا: الأحاديث النبوية من خلال كتب السنة.

١- ابن كثير، قصص الأنبياء، دار الباز للنشر والتوزيع ـ بدون سنة.

٢- ابن هشام، السيرة: (١/ ١٣٦)، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣- النووي، رياض الصابرين، دار أخبار الكتب العربية.

٤- حسن إبراهيم حسن، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: (١/٤٠٤) دار الجيل بيروت.

٥- سيد قطب، في ظلال القرآن دار الشروق عام ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م ـ ص ١٧١٩.

٦- عبد العليم عبد الرحمن خضر، المنهج الإيماني للدراسات الكونية في القرآن الكريم، الدار السعودية للنشر، ط.

٧- علي بن عبد الله الدفاع، روائع الحضارة العربية والإسلامية في العلوم: مؤسسة الرسالة ط١، ١٤١٨هـ.

٨- عمر الأشقر: تاريخ الفقه الإسلامي (ص٨٦، ٨٧)، دار النفائس.

٩- مجلة الشقائق العدد السادس والأربعون، ربيع الآخر ١٤٢٢ هـ (مجلة شهرية جامعة).

١٠- محمد بن مفرح بن شبلي القحطاني وصاحبيه، السياحة الأسس والمفاهيم دراسة تطبيقية على منطقة عسير، الطبعة الأولى ١٤١٧ هـ، ط. مؤسسة المدينة للصحافة (دار العلم) بجدة.

١١- محمد خميس الزوكة، صناعة السياحة، ١٩٩٧م ، دار المعرفة الجامعية.

١٢- محمد متولي الشعراوي «القصص القرآني في سورة الكهف» مؤسسة أخبار اليوم سنة ١٩٩٠.

١٣- مصطفى الفقي «الإسلام في متغير». الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٣.

١٤- مقدمة ابن خلدون: (٢ ١٤٧) الفصل الثالث والعشرون، دار الفكر.

١٥- مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي (ص ٢٢٥)، مؤسسة الرسالة.

١٦- يوسف القرضاوي «الحلال والحرام في الإسلام، دار القرآن الكريم للألبان سنة ١٧٩هـ.